التّصوّف

1.تعريف التّصوّف:

معناه في الاشتقاق: والشيء الذي اشتقت منه هذه الكلمة لم يعرف له مصدر محدد من قبل أكثر الباحثين سواء من الصوفية أو من غيرهم، ولكنهم ذكروا عدة احتمالات لتحديد ما اشْتُقتْ منه.

فقد تكون كلمة (التصوف) منسوبة إلى الصفاء، وقد رد هذه النسبة القشيري[1] والكلاباذي[2].

وقد أن تكون منسوبة إلى الصُّفَّة نسبة إلى أهل الصُّفَّة الذين كانوا يقعدون في مؤخرة مسجد رسول الله ز[3]. وهي نسبة باطلة لغوياً وواقعياً.

وقد تكون **نسبة إلى رجل يقال له صوفة، واسمه العوني بن مرّ، وإنما سمي صوفة لأن أمه نذرت لإن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، فكان أول من تفرد بخدمة بيت الله الحرام وانتسب إليه قوم في الجاهلية فسموا (صوفية) وقد انقطعوا إلى الله عزوجل وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم (الصوفية)[1]، ونفهم من هذه النسبة بأن المتصوفة ينتسبون إلى أناس من أهل الجاهليَّة لم يعرفوا الإسلام، وإذا صحت مثل هذه النسبة، فإن القوم قد حكموا على أنفسهم بأنهم ينتسبون إلى أقوام في الجاهلية.**

كما يمكن أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى (صوفانة) وهي بقلة رعناء قصيرة، ونسبوا إليها لاكتفائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضاً لا يصح لغوياً لأنه لو نسبوا إليها لقيل للواحد منهم (صوفاني)[2].

ويمكن أيضا **أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى الصوف، وقد ذهب إلى ذلك ابن تيمية وابن خلدون**[3]، وهو الراجح لأن القوم كانوا يلبسون الصوف كثيراً اقتداء برهبان النصارى، وبعدوا عن الرفاهية والراحة الجسمية رغم أن الإسلام لم يأمر بتعذيب الجسد ولا بلباس معين، بل الإسلام أباح لنا أن نأكل من الطيبات فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[5].

قال الجوهري في (الصحاح): (الصوف للشاة والصوفة أخص منه وصوفة أي حيٌّ من مضر وهو الغوث بن مريم بن أدين بن طابخة بن إلياس ابن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يغيضون بهم).

---

[1] تلبيس إبليس، ص: 1633.

[2] أبو الحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، 322/3.

[3] الفتاوى: لشيخ الإسلام، 11/6، والمقدمة لابن خلدون، ص: 467.

[4] البقرة: 172.

[5] الأعراف: 31.

وقول الشاعر: حتى يقال أجيزوا آل صوفانا[6]. **وكبش صاف أي كثير الصوف**[7]. **وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه. ومنه قولهم صاف عني شر فلان وأصاف الله عني شره**[8].

ومن خلال هذه التعريفات اللغوية المتقدمة يتضح لنا أن كلمة صوف تأتي بمعنى الصوف المعروف للشاة ونحوها. كما تأتي بمعنى مال وعدل، ويرى أحمد بن فارس أن الباب كله يرجع إلى الصوف المعروف وفي ذلك يقول: **(الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف. يقال كبش أصوف وصوف وصائف وصاف كل هذا يكون في كثير الصوف، ويقولون خذ بصوفة قفاه إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته)**[9]، **وذهب أحمد بن علي المقري في (المصباح المنير) إلى أن كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية**[10]. وقال ابن خلدون في (المقدمة): **(إن قيل بالاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف لأنهم في الغالب مختصون به)**[11].

(وتنازعوا في المعنى الذي أُضيف إليه الصّوفيّ، فإنه من أسماء النّسب؛ كالقرشيّ والمدنيّ وأمثال ذلك. فقيل: إنّه نسبة إلى أهل الصُّفَّة، وهو غلط لأنّه لو كان كذلك لقيل: صُفِّيٌّ، وقيل: نسبة إلى الصّفّ المقدّم بين يدي الله، وهو أيضا غلط؛ فإنّه لو كان كذلك، لقيل: صَفِّيٌّ، وقيل: نسبة إلى الصّفوة من خلق الله، وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صفويٌّ. وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب، كانوا يجاورون بمكة من الزّمن القديم، يُنسب إليهم النّسّاك. وهذا وإن كان مو افقا للنسب من جهة اللّفظ فإنّه ضعيف أيضا؛ لأنّ هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النّسّاك، ولأنه لو نُسب النّسّاك إلى هؤلاء لكان هذا النّسب في زمن الصّحابة والتّابعين وتابعيهم أولى، ولأنّ غالب من تكلّم باسم الصّفية لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهليّة لا وجود لها في الإسلام)[12]. **(وقيل – وهو المعروف – إنّه نسبة إلى لبس الصّوف)**[13].

قالت طائفةٌ: **(إنّما سمّيتِ الصّوفيّةُ صوفيّةً لصفاءِ أسرارِها، ونقاءِ آثارِها)**[14]. وقال بشرُ بنُ الحارث: **(الصّوفيُّ مَن صفا قلبُه لله)**، **وقال بعضُهم: (الصّوفيُّ مَن صفتْ لله معاملتُه، فصفتْ له من الله عزَّ وجلَّ كرامتُه)**[15]، وقال قومٌ: **(إنّما سمُّوا صوفيّةً لأنّهم في الصّفّ الأوّلِ بين يديْ الله جلّ وعزّ بارتفاع هممهم إليه،**

---

[6] أبو الحسن أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ط 1، القاهرة، 322/3.

[7] المصباح المنير ص 481.

[8] الصحاح الجوهري 1388/4.

[9] أبو الحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، 322/3.

[10] المصباح المنير، المطبعة الأميرية، ط 5، 481/1.

[11] ابن خلدون: المقدمة، ط 4، ص: 467.

[12] ابن تيمية: الصّوفيّة والفقراء، دار المدني بجدة للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، د ت، ص: 13، 14.

[13] ابن تيمية: الصّوفيّة والفقراء، دار المدني بجدة للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، د ت، ص: 15.

[14] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص: 9.

[15] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 10.

و إقبالهم عليه، ووقوفهم بسر ائرهم بين يديه)[16]، وقال قومٌ: **(إنّما سمُّوا صوفيّةً لقربِ أوصافهم من أوصافِ أهلِ الصُّفَّة**[17] **الذين كانوا على عهد رسولِ اللهِ ز)**[18]، وقال قومٌ: **(إنّما سمُّوا صوفيّةً للبسهم الصّوف)**[19].

(وأمّا من نسبهم إلى الصّفّة والصّوف فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنّهم قومٌ قد تركوا الدّنيا، فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعْرَوا الأجساد، لم يأخذوا من الدّنيا إلاّ ما لا يجوزُ تركُه، مِنْ سَتْرِ عورة وسَدِّ جَوْعَة. فلخروجهم عن الأوطان سُمُّوا غُرباء، ولكثرة أسفارهم سُمُّوا سَيَّاحين. ومن سياحتهم في البراري و إيوائهم إلى الكهوف عند الضّرورات سمّاهم بعضُ أهل الدّيار[20]**: "شَكْفَتِيَّة" والشَّكْفَتُ بلغتهم: الغارُوالكهفُ)**[21].

ووصفهم السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ فقال: **(أكلُهم أكلُ المرضى، ونومهم نومُ الغرقى، وكلامُهم كلامُ الخَرْقَى**[22]**)**[23].

قال الجنيد: **(ما أخذنا التّصوّف عن القيل والقال، لكن عن الجوع، وترك الدّنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات، لأنّ التّصوّف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى؛ وأصلُه التّعزُّفُ عن الدنيا، كما قال حارث: عزفت نفسي عن الدّنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظْمأْتُ نهاري)**[24].

(وسمّيت هذه الطّائفةُ "نُورِيَّةً")[25]، قال النّبيّ ز: **(إذا دخل النّورُفي القلبِ انشرحَ و انفسح)**، قيل: وما علامةُ ذلك يا رسول الله؟، قال: **(التَّجافي عن دارالغرور، والإنابةُ إلى دارالخلود، والاستعدادُ للموت قبل نزوله)**.

معناه في الاصطلاح:

---

[16] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 10.

[17] لأنّ الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله ولله كأصحاب الصّفّة، وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، وكانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم ويحث الناس على مؤاساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم)، أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، الهامش، ص: .

[18] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 10.

[19] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 10.

[20] أهل الدّيار: أهل خراسان.

[21] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 11.

[22] الخرق جمع أخرق، وهو الجاهل الأحمق. وقد وصف كلامهم بأنه ككلام الخرق لأنه يعمى على مستمعيه فلا يفهمونه، فيظنونه بلا معنى أو مغزى ككلام الحمقى.

[23] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 12.

[24] عبد العزيز السّيروان: الصوفيون وأرباب الأحوال، مواعظ وحكم وأقوال، السيروان للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1995، ص: 59.

[25] أبو بكر الكلاباذي: التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 12.

للقوم عبارات مختلفة في ذلك، تصور مقام كل واحد في التصوف وتصوره له، فقال بعضهم في تعريف التصوف: **(أنه الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دني)**، وقيل: **(أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في ذلك الوقت، بمعنى أنه إن كان في وقت صلاة كان مصليا، وإن كان في وقت ذكر كان ذاكر، وإن كان في وقت جهاد كان مجاهدا)**، **لذلك قيل: (الصوفي ابن وقته)**، وقيل في تعريف **التصوف: (الأخذ بالحقائق، واليأس بما في أيدي الخلائق)**، **وقيل: (التصوف مر اقبة الأحوال ولزوم الأدب)**، وقيل غير ذلك.

قال القاضي شيخ الإسلام **زكريا الأنصاري: (التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية)**[26]. ويقول الشيخ **أحمد زروق: (التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، و إفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك)**[27]. وقال الإمام **الجنيد: (التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني)**[28]. وقال بعضهم: **(التصوف كله أخلاق، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف)**[29]. وقال **أبو الحسن الشاذلي: (التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية)**[30]. وقال **ابن عجيبة** رحمه الله: **(التصوف: هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة)**[31].

وقال صاحب حاجي خليفة صاحب كشف الظنون: **(هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم)**، إلى أن قال:

علـــم التصـــوف علـــمٌ لـــيس يعرفـــه *** إلا أخـــو فطنـــةٍ بـــالحق معـــروفُ

ولـــيس يعرفـــه مَـــنْ لـــيس يشـــهده *** وكيـــف يشـــهد ضـــوءَ الشـــمسِ مكفـــوفُ[32]

وقال الشيخ زروق في (قواعد التصوف): (وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه)[33].

---

[26] على هامش "الرسالة القشيرية"، ص: 7.

[27] زروق الفاسي: قواعد التصوف، قاعدة: 13، ص: 6.

[28] مصطفى المدني: النصرة النبوية، ص: 22.

[29] امصطفى المدني: النصرة النبوية، ص: 22.

[30] حامد صقر: نور التحقيق، ص: 93.

[31] أحمد بن عجيبة الحسني: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص: 4.

[32] حاجي خليفة: كشف الظنون، ج 1، ص: 413، 414.

[33] قواعد التصوف، ص: 2.

(فعماد التصوف تصفية القلب من أوضار المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم، فالصوفي من صفا قلبه لله، وصفتْ لله معاملته، فصفت له من الله تعالى كرامته).

تعريف التصوف لدى المتصوفة:

وقد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعريفه، كما اختلفوا في أصله واشتقاقه، بل اختلفوا هنا في تعريفه اختلافاً كثيراً حتى تناقضت وتعارضت تعريفاتهم فمن المتصوفة الذين أوردوا تعريفات عدة للتصوف؛ فمعروف الكرخي وقد عرفه بما يلي: **(التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق)**[34]، وعرّفه **الجنيد**[35] بما يلي فقال: **(التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة)** وقد عرّفه أيضاً بما يلي فقال: **(التّصوّف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الربانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول ز في الشريعة)**[36].

إذا نظرنا في التعريفات السابقة، نرى أن أئمة التصوف قد عرفوا التصوف بتعريفات مختلفة، فمثلاً، معروف الكرخي قد عرفه بأنه الأخذ بالحقائق، كلمة الحقائق تحتمل عدة وجوه، ولا ندري ماذا يقصد بها، ولعله في الغالب يقصد بها العلم الصوفي، الذي يقولون عنه علم الحقيقة. وأما الجنيد فقد عرفه بتعريفين، ففي التعريف الأول، عرفه بأن يكون الإنسان مع الله بلا علاقة، ولعله يقصد بأن على الإنسان أن يقطع جميع علاقاته مع بني جنسه، وهذه دعوة باطلة، فإننا لسنا مأمورين بالهروب عن البشر إلى الأربطة والخوانق، والزوايا الصغيرة، كما يفعل المتصوفة إلى يومنا هذا.

وأما في التعريف الثاني، فقد عرفه بأنه تصفية القلب عن موافقة الخليقة، والابتعاد عن الأخلاق الطبيعية التي فُطر الإنسان عليها، والسعي إلى التخلص من الصفات البشرية، وعدم إعطاء النفس حقها مما تطلبه، وأن يكون متعلقاً بعلوم الحقيقة، ويتبع الرسول ز في الشريعة.

وهذه كلها مخالفة لما جاء به الرسول ز من عند الله، لأن الإنسان بشر وسيظل بشراً هكذا، مهما عبد الله سبحانه وتعالى. وعرَّف سحنون التصوف بأنه التجرد عن كل الأملاك، والتحرر من أي أحد أن يملكك. والصوفية في هذه التعريفات، تعرب لنا عن معتقدات الصوفية التي يعتقدونها في قلوبهم، ولم يقولوها جزافاً.

تعريف التصوف لدى غير المتصوفة:

كما نجد غير المتصوفة من المسلمين قد عرفوه أيضا، ومنهم الدكتور إبراهيم هلال الذي قال: **(رغم كثرة التعريفات التي عرف بها التصوف الإسلامي في كتب التصوف وغيرها فإننا نستطيع أن نقول إن التصوف كما يراه الصوفية في عمومه هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد، حتى يضعف في الإنسان الجانب**

---

[34] السهروردي: عوارف المعارف، ط دار المعارف، بيروت، ص: 62.

[35] السهروردي: عوارف المعارف، ص: 62.

[36] الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الكليات الأزهرية، ط 1، ص: 34.

الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة)[37].

والإسلام يدعو حقيقة إلى تربية الإنسان تربية إسلامية صحيحة، حتى يكون مستقيماً في حياته، ويخضع لأوامر الله ورسوله ز، عن قناعة كاملة. ولكن الإسلام لا يسلك في تربية الإنسان الطريق الذي سلكه المتصوفة في تربية الإنسان، وإنما يسلك في التربية إلى تقوية الإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبجميع ما يجب الإيمان به، والعمل بالشريعة في حدود استطاعة الإنسان، بالإتيان بالواجبات، والإقلاع عن المحرمات، والابتعاد عنها كلية، ولذا أقول، إن سلوك المتصوفة في تربية الإنسان سلوك منحرف، بعيد كل البعد عن المنهج الذي جاء به الإسلام، وأمرنا أن نسلكه، ذلك لأن السلوك الذي يسير عليه المتصوفة في التربية يحطم معنويات الإنسان، ويسعى دائماً إلى أن يفصل الإنسان عن هذه الحياة نهائياً، حتى يصبح عضواً ميتاً لا قيمة له في هذه الحياة، وهذا سلوك يختلف تماما عن السلوك الذي دعا إليه الإسلام، ذلك لأن الإسلام دين شامل كامل، يدعو الإنسان لكي يقوم بوظائفه في هذه الحياة على أكمل وجه وأتمه. فالإسلام أباح للإنسان أن يأكل من الطيبات كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[38]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[39].

ولو تتبعنا وبحثنا في المصادر التاريخية، فسنجد أن هذه التربية الصوفية أخذت من فلسفات أجنبية، كالهندوكية، والبوذية، أو الديانات المحرَّفة، كالمسيحية واليهودية، أو أنها أخذت من البيئة الإسلامية، عن طريق الطوائف الضالة كالشيعة والباطنية. فالمتصوفة قد أدخلوا في الإسلام ما ليس منه، في جميع جوانبه، سواء كان في جانب العبادة، أو كان في جانب العقائد والأخلاق، حتى أصبحت معرفة الصوفية في عمومها معرفة فلسفية، أو إشراقية، لا معرفة دينية، ترجع إلى محض التمسك بالكتاب والسنة. فالإشراق الفلسفي الذي عرف من قبل عند سقراط وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان والهند والفرس، والذي يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد والرياضة والعبادة، إلى مرحلة الكشف والإخبار عن المغيبات، هو غاية التصوف الإسلامي في منهجه الفلسفي[40].

وقد عرفه الشيخ محمد فهر شقفة بقوله: (التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية، يعتمد على جملة من العقائد الغيبية (الميتافيزيكية)، مما لم يقم على صحتها دليل، لا في الشرع ولا في العقل)[41]. وقد شرح هذا التعريف فقال: (وقولنا: يعتمد على جملة من العقائد (الميتافيزيكية) مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل. يعني تلك العقائد التي تبحث فيما وراء الطبيعة، والتي يدعون بأنهم تعلموها عن طريق الكشف، أو وردت إليهم عن طريق الخواطر، أو الرؤى المنامية، كعقيدة البعض في الحلول، ووحدة الوجود، والحقيقة المحمدية، واعتبارها أصلاً لكل

---

[37] ابراهيم هلال: التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، دار النهضة العربية، ط 1، 1395هـ، ص: 1.

[38] البقرة: 172

[39] الأعراف: 32

[40] التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، ص: 1.

[41] محمد فهر شقفة: التصوف بين الحق والخلق، الدار السلفية، ص: 7.

حياة بشرية وكونية، وعقيدة البعض الآخر عن النواميس الطبيعية، مما لم يخبر بذلك قرآن ولا سنة، ولا يقوم على أساس علمي، ولا يتفق مع المقاييس العقلية)[42].

2 . نشأة التصوف: نشأ التصوف أول ما نشأ بالبصرة، وأول من بنى ديرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، من أصحاب الحسن البصري.

وقد تميز عُبّادُ البصرة آنذاك بالمبالغة في التعبد، وظهرت فيهم مظاهر جديدة لم تكن مألوفة من قبل، فكان منهم من يسقط مغشيا عليه عند سماع القرآن، ومنهم من يخر ميتا، فافترق الناس إزاء هذه الظاهرة بين منكر ومادح، وكان من المنكرين عليهم جمع من الصحابة كأسماء بنت أبي بكر وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم، إذ لم تكن تلك المظاهر في عهد الرسول ز وصحابته وهم الأعظم خوفا والأشد وجلا من الله سبحانه.

3 . منهج الصوفية: امتاز منهج المتقدمين من الصوفية بالتعويل على الكتاب والسنة، واعتبارهما مصدري التلقي والاستدلال الوحيدين، ويروى عنهم نصوص كثيرة في ذلك، فمن ذلك ما قاله أبو القاسم الجنيد: (**مذهبنا هذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة**)، وقال أيضا: (**علمنا منوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به**)، وقال أبو سليمان الداراني: (**ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة**)، وقال سهل بن عبدالله التستري: (**مذهبنا مبني على ثلاثة أصول: "الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال**").

قال أبو العباس الآدمي، وكان من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم: (**من ألزم نفسه متابعة آداب الشريعة، نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب زفي أوامره و أفعاله وأخلاقه**).

وقال أبو القاسم الجنيد: (**الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ز**). وقال أيضا: (**من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة**).

ومن أقوال ذي النون المصري: (**مدار الكلام على أربع: حب الجليل، وبغض القليل، و اتباع التنزيل، وخوف التحويل**). وقال: (**من علامات المحب لله عزوجل متابعة حبيب الله زفي أخلاقه و أفعاله وأوامره وسننه**).

4 . أفكار ومعتقدات الصوفية:

بدأت الصوفية كمجموعة اتخذت الزهد شعارها، مع صحة الاعتقاد وسلامة العمل في الجملة، إلا أنه دخلت فيها فرق وطوائف متعددة، لم يكن الجامع بينها إلا التحلي بالزهد والاهتمام بأحوال القلوب، سواء كان الأمر على وجه الصدق، أم كان على وجه الادعاء والتظاهر أمام الخلق، أما العقائد فقد تنوّعت، ولا سيما بين جيل الصوفية الأوائل من أمثال إبراهيم بن أدهم، والجنيد، وبشر الحافي، وبين المتأخرين من أمثال الحلاج وابن عربي والفارابي وابن سبعين وغيرهم، وعليه فمن الخطأ بمكان إطلاق الأحكام التعميمية على الصوفية بعامة، لاتحادهم في الاسم، مع اختلافهم الجوهري في كثير من العقائد والأفكار، ولكنها مع ذلك تتشابه وتتعدد بتعدد مدارسهم وطرقهم، ويمكن إجمالها فيما يلي:

يعتقد المتصوفة **في الله تعالى** عقائد شتى، منها الحلول كما هو مذهب الحلاج، ومنها وحدة الوجود حيث عدم الانفصال بين الخالق والمخلوق.

---

[42] محمد فهر شفقة: التصوف بين الحق والخلق، ص: 7.

والغلاة منهم يعتقدون **في الرسول ز** أيضاً عقائد شتى، فمنهم من يزعم أن الرسول ز لا يصل إلى مرتبتهم وحالهم، وأنه كان جاهلاً بعلوم رجال التصوف كما **قال البسطامي: (خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله)**. ومنهم من يعتقد أن الرسول محمد ز هو قبة الكون، وهو الله المستوي على العرش، وأن السماوات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خُلقت من نوره، وأنه أول موجود، وهذه عقيدة ابن عربي ومن تبعه. ومنهم من لا يعتقد بذلك بل يرده، ويعتقد ببشريته ورسالته، ولكنهم مع ذلك يستشفعون ويتوسلون به ز إلى الله تعالى، على وجه يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة.

ويعتقد الصوفية **في الأولياء** عقائد شتى، فمنهم من يفضّل الولي على النبي، ومنهم من يجعلون الولي مساوياً لله في كل صفاته، فهو يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويتصرف في الكون. ولهم تقسيمات للولاية، فهناك الغوث، والأقطاب، والأبدال والنجباء حيث يجتمعون في ديوان لهم في غار حراء كل ليلة ينظرون في المقادير.

ومنهم من لا يعتقد ذلك، ولكنهم أيضاً يأخذونهم وسائط بينهم وبين ربهم، سواء كان في حياتهم أو بعد مماتهم. وكل هذا بالطبع خلاف الولاية في الإسلام التي تقوم على الدين والتقوى، وعمل الصالحات، والعبودية الكاملة لله والفقر إليه، وأن الولي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، فضلاً عن أنه يملك لغيره، قال تعالى لرسوله ز: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾[43].

لا بد في التصوف من التأثير الروحي الذي لا يأتي إلا بواسطة الشيخ الذي أخذ الطريقة عن شيخه.

لا بد من الذكر والتأمل الروحي وتركيز الذهن في الملأ الأعلى، وأعلى الدرجات لديهم هي درجة الولي.

يتحدث الصوفيون عن (العلم اللَّدُنِيّ) الذي يكون في نظرهم لأهل النبوة والولاية، كما كان ذلك للخضر عليه السلام، حيث أخبر الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وعلّمناه مِنْ لَدُنَّا علمًا﴾[44].

ومن عقائد بعض الصوفية المتأخرين:

1. القول بالحلول: وهي بدعة كفرية أخذها من أخذها عن كفار الهند، ومعناها عندهم أن الله حالٌّ في مخلوقاته فلا انفصال بين الخالق والمخلوق، وليس في الوجود إلا الله، وهذا ما يسمى بوحدة الوجود.

2. الغلو في الصالحين وفي مقدمتهم سيد الخلق ز، حيث يعتقد الغالون من الصوفية أن النبي صلى الله عليه وسلم هو قبة الكون، وأن الخلق ما خلق إلا لأجله ومن نوره، ويقل منسوب الغلو عند بعضهم فيرى أن النبي ز بشرٌ رسولٌ، إلا أنهم يستغيثون به طالبين المدد والعون، ولا يستغاث إلا بالله جل جلاله كاشف الضر ورافعه.

ومن أوجه الغلو عند الصوفية كذلك الغلو في صالحيهم، حتى وجد في بعضهم من يعبد شيخه فيسجد له ويدعوه، وربما قال: (**بعضهم كل رزق لا يرزقنيه شيخي فلا أريده**)، ونحو هذه الأقوال، ويلقبون قادتهم ومعلميهم بـ(الأقطاب والأوتاد)، ويجعلون لهم تصريف الكون، في منطق يجمع بين الجهل والسخف وقلة العقل والدين.

3. تقسيم الدين إلى شريعة تلزم العامة، وحقيقة تلزم الخاصة، فالشريعة هي ما يسمونه العلم الظاهر، والحقيقة هي ما يدعونه العلم الباطن، فالعلم الظاهر والذي يمثل الشريعة معلوم المصدر وهو الكتاب والسنة، يدخل منه الجميع، أما علم الحقيقة، أو علم الباطن فهذا يدعي الصوفية أنهم يأخذونه عن الحي الذي لا يموت ولا يصل إليه إلا المصطفون الأخيار، فيقول أحدهم: **(حدثني قلبي عن ربي)**، وذهب بعضهم إلى القول بأنه **(يأخذ عن ملك الإلهام)، كما تلقى الرسول ز علومه عن ملك الوحي، وزعم بعضهم (أن الرسول ز هو من يخبرهم بما يتوجب**

---

[43] الجن :21.

[44] الكهف، 65.

عليهم من عبادة وذكر، وأنهم يلتقون بالأنبياء ويسألونهم عن قصصهم)، وقال آخر: **(إذا طالبوني بعلم الورق، برزت عليهم بعلم الخرق)**. قال الإمام الذهبي في السير: (وجاء عنه (...) أشياء مشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو فيطوى ولا يحتج بها، إذ ظاهرها إلحاد مثل: **سبحاني، وما في الجبة إلا الله، ما النار؟! لأستندن إليها غدا و أقول اجعلني فداء لأهلها وإلا بلعتها، ما الجنة؟!! لعبة صبيان، ومراد أهل الدنيا. ما المحدِّثون؟! إن خاطبهم رجل عن رجل، فقد خاطبنا القلب عن الرّبّ**، وقال في اليهود: **ما هؤلاء؟! هيهم لي أيُّ شيء هؤلاء حتى تعذّبهم)**.

الوقفة مع الغلو الصوفي سواء في النبي ز، أو فيمن دونه كمشايخهم وساداتهم، فقد نهى الله سبحانه عن الغلو وبين أنه سبب من أسباب الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، فقال سبحانه :﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾، والغلو هو التشديد في الأمر حتى يجاوز الحد فيه، ونهى النبي ز عن الغلو أيضا، فقال ز: **(إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين)** وقال أيضاً: **(لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله)** رواه البخاري.

يقول مالك بن دينار: (لا يبلغ الرجل منزلة الصّدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، ويأوي إلى مز ابل الكلاب). وذلك دون سند من قدوة سابقة أو نص كتاب أو سنة، ولكن مما يجدر التنبيه عليه أنه قد نُسب إلى هؤلاء الزهاد من الأقوال المرذولة والشطحات المستنكرة ما لم يثبت عنهم بشكل قاطع كما يذكر ابن تيمية.

قد يأتي بعض المنتسبين إلى التصوف بأعمال عجيبة وخوارق، وفي ذلك يقول ابن تيمية: **(وأما كشف الرؤوس، وتفتيل الشعر، وحمل الحيّات، فليس هذا من شعار أحد من الصالحين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين، ولا شيوخ المسلمين، ولا من المتقدمين، ولا من المتأخرين، ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي، وإنما ابْتُدِعَ هذا بعد موت الشيخ بمدة طويلة)**[45].

4. بناؤهم العبادة على المحبة فقط، فلا يعبدون الله خوفا من ناره ولا طمعا في جنته، وقد قال بعض السلف: **(من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري - أي من الخوارج - ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد)**.

5. مصادر التلقي عند الصوفية:

يعتمد الصوفية الكشف مصدراً وثيقاً للعلوم والمعارف، بل لتحقيق غاية عبادتهم، ويدخل تحت الكشف الصوفي جملة من الأمور منها:

1) النبي ز: ويقصدون به الأخذ عنه يقظةً أو مناماً.

2) الخضر عليه الصلاة السلام: قد كثرت حكايتهم عن لقياه، والأخذ عنه أحكاماً شرعية وعلوماً دينية، وكذلك الأوراد، والأذكار والمناقب.

3) الإلهام: سواء كان من الله تعالى مباشرة، وبه جعلوا مقام الصوفي فوق مقام النبي حيث يعتقدون أن الولي يأخذ العلم مباشرة عن الله تعالى.

---

[45] ابن تيمية: كتاب مجموع الفتاوى، ص: 494.

4) الفراسة[46]: والتي تختص بمعرفة خواطر النفوس وأحاديثها.

5) الهواتف: من سماع الخطاب من الله تعالى، أو من الملائكة، أو الجن الصالح، أو من أحد الأولياء، أو الخضر، أو إبليس، سواء كان مناماً أو يقظةً أو في حالة بينهما بواسطة الأذن.

6) الإسراءات والمعاريج: ويقصدون بها عروج روح الولي إلى العالم العلوي، وجولاتها هناك، والاتيان منها بشتى العلوم والأسرار.

7) الكشف الحسي: بالكشف عن حقائق الوجود بارتفاع الحجب الحسية عن عين القلب وعين البصر.

8) الرؤى والمنامات: وتعتبر من أكثر المصادر اعتماداً عليها حيث يزعمون أنهم يتلقون فيها عن الله تعالى، أو عن النبي ز، أو عن أحد شيوخهم لمعرفة الأحكام الشرعية.

9) التلقي عن الأنبياء غير النبي ز، وعن الأشياخ المقبورين.

6. طبقات المتصوفة:

ظهر في القرنين الثالث والرابع الهجري ثلاث طبقات من المتصوفة، هي:

الطبقة الأولى: كان يغلب على أكثر ممثّلي هذه الطبقة الاستقامة في العقيدة، والإكثار من دعاوى التزام السنة ونهج السلف، وإن كان ورد عن بعضهم مثل الجنيد، بعض العبارات التي عدها العلماء من الشطحات.

ومن أهم السمات الأخرى لهذه الطبقة كثرة الاهتمام بالوعظ والقصص، مع قلة العلم والفقه والتحذير من تحصيلهما، في الوقت الذي اقتدى أكثرهم بسلوكيات رهبان ونساك أهل الكتاب، حيث حدث الالتقاء ببعضهم، مما زاد في البعد عن أوصاف الصحابة وأئمة التابعين. ونتج عن ذلك اتخاذ دور للعبادة غير المساجد، يلتقون فيها للاستماع للقصائد الزهدية، أو قصائد ظاهرها الغزل، بقصد مدح النبي صلى الله عليه وسلم، مما سبب العداء الشديد بينهم وبين الفقهاء، كما ظهرت فيهم ادعاءات الكشف والخوارق وبعض المقولات الكلامية. ومن أشهر رموز هذه الطبقة (الجنيد)[47].

-الطبقة الثانية: وانتقل فيها الزهد من الممارسة العملية والسلوك التطبيقي إلى مستوى التأمل التجريدي والكلام النظري، ولذلك ظهر في كلامهم مصطلحات: الوحدة، والفناء، والاتحاد، والحلول، والسكر، والصحو، والكشف، والبقاء، والمريد، والعارف، والأحوال، والمقامات، وشاع بينهم التفرقة بين الشريعة والحقيقة، وتسمية أنفسهم أرباب الحقائق وأهل الباطن، وسموا غيرهم من الفقهاء أهل الظاهر والرسوم، وغير ذلك مما كان غير معروف عند السلف الصالح، ولا عند الطبقة الأولى من المنتسبين إلى الصوفية، مما زاد في انحرافها، فكانت بحق تمثل البداية

---

[46] وأما الفراسة فصفة لازمة للعارف في رأي الجنيد، وقد تحدّث عنها كثير من الصّوفيّة، (سئِل الجنيد: "من العارف؟، قال: من نطق عن سرّك وأنت ساكت")، السّلميّ: طبقات الصّوفيّة، تحقيق شريبة، القاهرة، 1953، ص: 157.

[47] وهو أبو القاسم الخراز المتوفى 298هـ، يلقبه الصوفية بسيد الطائفة.

الفعلية لما صار عليه تيار التصوف حتى الآن. ومن أهم أعلام هذه الطبقة: أبو يزيد البسطامي ت263هـ، ذو النون المصري ت245هـ، الحلاج[48] ت309هـ، أبو سعيد الخزار 277 .286هـ، الحكيم الترمذي ت320هـ، أبوبكر الشبلي 334هـ.

الطبقة الثالثة: وفيها اختلط التصوف بالفلسفة اليونانية، وظهرت أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود موافقة لقول الفلاسفة، كما أثرت في ظهور نظريات الفيض والإشراق على يد الغزالي والسهروردي، وبذلك تعد هذه الطبقة من أخطر الطبقات والمراحل التي مر بها التصوف، والتي تعدت مرحلة البدع العملية إلى البدع العلمية، التي بها يخرج التصوف عن الإسلام بالكلية. ومن أشهر رموز هذه الطبقة: السهروردي 587هـ، ابن عربي ت638هـ، ابن الفارض 632هـ، ابن سبعين ت 667 هـ.

7 .مآخذ على الصوفية:

من أبرز المآخذ التي تؤخذ على الصوفية ما يلي:

1) الحلول[49] والاتحاد[50].
2) وحدة الوجود[51].
3) الشرك في توحيد الألوهية وذلك بصرف بعض أنواع العبادة لغير الله تعالى.
4) الشرك في توحيد الربوبية وذلك باعتقادهم أن بعض الأولياء يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب.
5) الغلو في الرسول ز.
6) الغلو في الأولياء.
7) الادعاءات الكثيرة الكاذبة، كادعائهم عدم انقطاع الوحي وما لهم من المميزات في الدنيا والآخرة.
8) تساهل بعض الصوفية في التزام أحكام الشرع.
9) طاعة المشايخ والخضوع لهم، والاعتراف بذنوبهم بين أيديهم، والتمسح بأضرحتهم بعد مماتهم.

---

[48] الحلاج: أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج، ولد بفارس حفيداً لرجل زرادشتي، ونشأ في واسط بالعراق، وهو أشهر الحلوليين والاتحاديين، رمي بالكفر وقتل مصلوباً لتهم أربع وُجهت إليه: اتصاله بالقرامطة، قوله (أنا الحق)، اعتقاد أتباعه ألوهيته، قوله في الحج، حيث يرى أن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أداؤها.

[49] اختلف الباحثون في تعريفهم للحلول، ومما قيل في تعريفه: إن الحلول هو أن يكون الشيء حاصلاً في الشيء، ومختصَّاً به، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر تحقيقاً، أو تقديراً، ينظر: صابر طعيمة: الصوفية، ص: 247.

[50] هو (القول باتحاد الله تعالى ببعض خلقه)، ومنهم من يقولون: (إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء)، وهناك من قال في ذلك:

رق الزجـــــاج وراقـــــت الخمـــــرُ *** وتشـــــابها فتشـــــاكل الأمـــــرُ
فكأنمـــــا خمـــــرٌ ولا قـــــدحٌ *** وكأنمـــــا قـــــدح ولا خمـــــرُ

نُسِبَ هذان البيتان لأبي نواس، ونسبا أيضاً للسهروردي، كما نُسِبا للصاحب بن عباد. انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، 287/2.

[51] خلاصة الكلام عن هذه المصطلحات الثلاثة (الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود) مقسمة على قسمين: (1) ما يقول بوجود ذاتٍ لله، وذاتٍ للمخلوق، ثم حصل بينهما امتزاج، إما بالحلول أو بالاتحاد، (2) ما لا يقول بذاتين مفترقتين، بل ما ثمَّ إلا ذاتٌ واحدة، وهو القول بوحدة الوجود.

10) تجاوزات كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان، في هيئة ما يسمونه الذكّر، وهو هزّ البدن والتمايل يميناً وشمالاً، وذكر كلمة الله في كل مرة مجردة، والادعاء بأن المشايخ مكشوف عن بصيرتهم، ويتوسلون بهم لقضاء حوائجهم، ودعاؤهم بمقامهم عند الله في حياتهم وبعد مماتهم.

لقد فتح **التصوف المنحرف** باباً واسعاً دخلت منه كثير من الضلالات والبدع التي تخرج صاحبها من الإسلام.

قالت رابعة العدويّة:

أُحبُّـــك حُبَّـــين حُـــبَّ الهـــوى *** وحبـــاً لأنـــك أهـــل لـــذاكا

فأمـــا الـــذي هـــو حُـــبُّ الهـــوى *** فشُـــغْلِي بِـــذِكْرِكَ عـــن ســـواكا

وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــلٌ لـــه *** فكَشْـــفُكَ لـــي الحُجْـــبَ حتـــى أراكـــا

فـــلا الحمـــد فـــي ذا، ولا ذاك لـــي *** ولكـــن لـــك الحمـــد فـــي ذا وذاكـــا[52]

(فلغة الحب ظلت قابعة في اصطلاحات الزهاد حتى أبرزتها رابعة؛ و**صار الحب على يديها خالصاً لله لا خوفاً من نار ولا طمعاً في جنة**؛ فحبها له شغلها عن حب الخَلْقِ؛ لذلك عاشت حياتها لذكرهِ ومناجاتهِ في اتصال دائم لأنها عارفة به متشوقة للقائه، فهي تتطلع إلى مقام المحبة الإلهية في ثقة واطمئنان، وتجعل خَلْوَتها معه سبيلها إليه، فهو الخليل دون غيره).

وتخلَّلْـــتَ مســـلكَ الـــرُّوحِ مِنِّـــي *** وبـــه سُـــمِّيَ الخليـــلُ خلـــيلا

فـــإذا مـــا نطقـــتُ كنـــتَ حـــديثي *** وإذا مـــا ســـكتُّ كنـــتَ الخلـــيلا[53]

(و**الخلْوة** كما قال الكاشاني: "محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره"[54]، وذكر الله مرتبط بمناجاته وهو جزء من محبته؛ وكانت رابعة قد أسست له في قولها السابق؛ فالذكر لديها كشف رباني، ونور لها).

(و**النور** بريدُ الذاكرين، وهو اسم من أسماء الله؛ لأن الله سبحانه يتجلى باسمه الظاهر الممثل بالأكوان ومنها النور، كما يراه أهل التصوف، و**النور** "قد يطلق على كل ما يكشف المستور من العلوم الذاتية، والواردات الإلهية التي تطرد الكون عن القلب"[55]).

وقالت:

---

[52] عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة رابعة العدويّة، إمامة العاشقين والمحزونين، دار الرّشاد، ط 2، القاهرة، 1996، ص: 194.

[53] الزبيدي: إتحاف السادة المتقين، 277/9.

[54] اصطلاحات الصوفية، ص: 31.

[55] اصطلاحات الصوفية، ص: 106.

قلـــوبُ العاشـــقين لهـــا عيـــونٌ *** تـــرى مـــا لا يـــراه الناظرونـــا

وألســـنةٌ بســـرٍّ قـــد تنـــاجي *** تغيـــبُ عـــن الكـــرام الكاتبينـــا

وأجنحـــةٌ تطيـــر بغيـــر ريـــشٍ *** إلـــى ملكـــوت ربِّ العالمينـــا

فتســـقيها شـــرابَ الصّـــدقِ صـــرفًا *** وتشـــرب مـــن كـــؤوسِ العارفينـــا[56]

وقالت:

ولقـــد جعلتُـــكَ فـــي الفـــؤادِ مُحَـــدِّثي *** وأبَحْـــتُ جســـمي مَـــنْ أرادَ جلوســـي

فالجســـمُ منِّـــي للجلـــيس مـــؤانسٌ *** وحبيـــبُ قلبـــي فـــي الفـــؤادِ أنيســـي[57]

فقالوا: إباحية حلولية متزندقة.

وقالت أيضا:

كأســـي وخمـــري والنّـــديمُ ثلاثـــةٌ *** وأنـــا المشـــوقةُ فـــي المحبّـــةِ: رابعـــه

كـــأسُ المســـرّةِ والنّعـــيمِ يُـــديرُها *** ســـاقي المـــدامِ علـــى المـــدى مُتتابِعَـــه

فـــإذا نظـــرتُ، فـــلا أُرى إلاّ لـــه *** وإذا حضـــرتُ، فـــلا أُرى إلاّ معـــه

يـــا عـــاذلي إنّـــي أحـــبُّ جمالَـــه *** تـــا اللّه مـــا أُذْنـــي لِعَـــذْلِكَ ســـامعَه

كـــم بِـــتُّ مـــنْ خُرْقـــي وفـــرطِ تعلُّقـــي *** أُجـــري عيونًـــا مـــنْ عيـــوني الدّامعـــه

لا عَبْرتـــي تُرْقـــا، ولا وصْـــلي لـــهُ *** يبقـــى، ولا عينـــي القريحـــةُ هاجعـــه[58]

وقال أحدُهم:

إذا مـــا قـــال لـــي رَبِّـــي *** أَمـــا اســـتحْيَيْتَ تعصـــيني

---

[56] عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة رابعة العدويّة، ص: 184.

[57] عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة رابعة العدويّة، ص: 162.

[58] عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة رابعة العدويّة، ص: 161.

وتُخفـــي الـــذَّنبَ مـــن خَلْقِـــي *** وبالعصـــــــيانِ، تـــــــأتيني

فمـــــا قـــــولي لـــــه لمَّـــــا *** يُعـــــــاتبُني.. ويُقْصِـــــــيني؟؟[59]

(يحتلّ الشّعر الصّوفيّ مكانة مرموقةً في تاريخ الأدب العربيّ، وإنْ كان هذا اللّون الشّعريّ المميّز لم يلقَ ما يستحقُّه من عناية... فأهلُ اللغة لا معرفة لهم بطبيعة التّجربة الصّوفيّة والفكر الصّوفي، حيث يهتمّ بهذه الموضوعات غيرُهم من الباحثين، ودارسو التّصوّف – على الجانب الآخر – قلّما نجد منهم منْ يهتمّ بهذا الجانب الشّعريّ، إنّما يستغرقُ اهتمامُهُم طبيعةَ التّجربة الصّوفيّة في تفرّدها وخصوصيّتها، ويكتفون بتتبّع الفكر الصّوفي في مراحله المختلفة، وعند أقطابه الكبار، دون الالتفات – في أحيان كثيرة – إلى أهمّية الشّكل الذي عبّر به الصّوفيّة عن أحوالهم، وترجموا به تجربتهم الفريدة)[60].

(اتّهم الحلاّج بالقول بالحلول – أيْ حلول الله في الإنسان – حين لفظ ببعض الكلمات وهو في حال الوله الغالب المستولي على شعوره، مثل قوله:

أنـــا مَـــنْ أهـــوى، ومـــنْ أهـــوى أنـــا *** نحـــــن روحـــــانِ حلَلْنـــــا بـــــدنَا

وهكذا يطيشُ سهمُ الحلاّج، فيأتي بكلمة "الحلول" دون مواربة.. فتأخذ هذه الكلمة الطّائشة بيده إلى نهايته)[61].

وفي حالة أخرى، يقول الحلاّج وقد تملّكه الوجدُ الشّديدُ، فلم يعد يميّز الكلمات التي يوجّهها إلى محبوبه؛ الحق عز وجلّ:

أنـــتَ بـــين الشّـــغاف والقلـــبِ تجـــري *** مثـــــلَ جـــــرْيِ الـــــدّمعِ مـــــن أجفـــــاني

وتَحُـــــلَّ الضّـــــميرَ جـــــوفَ فـــــؤادي *** كحلـــــــــولِ الأرواحِ فـــــــي الأبـــــــدانِ

(ولهذه العبارات التي تفوّه بها العاشقُ المولّه في حال نشوته، شهد عليه معاصروه بالكفرِ، وأخرجوه من زمرة المسلمين، رغم ما عُرفَ منه من زهده الشّديد والتزامه بالعبادات)[62].

(كانت رابعة تصلّي في اليوم واللّيلة ألفَركعة وتقول: ما أريد به ثوابا، ولكنْ ليُسرَّ رسول الله ويقول للأنبياء: انظروا إلى امرأة من أمّتي هذا عملها في اليوم واللّيلة)[63].

---

[59] عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة رابعة العدويّة، ص: 160، وهذه الأبياتُ نفسُها يذكرها ابن الجوزي منسوبة إلى أحمد بن حنبل، فقد روى في معرض الغناء عند الصّوفية أنّ لهم قصائدَ منها هذه القصيدةُ، وكان إنشادُها يتسبّبُ في بكائهم.

[60] يوسف زيدان: عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصّوفيّة، الهيئة المصرية العامة للكتّاب، 1988، ص: 75.

[61] يوسف زيدان: عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصّوفيّة، ص: 76، 77.

[62] يوسف زيدان: عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصّوفيّة، ص: 77.

قالت رابعة العدويّة:

أُحبُّـــك حُبَّـــين حُـــبَّ الهـــوى *** وحبـــاً لأنـــك أهـــل لـــذاكا
فأمـــا الـــذي هـــو حُـــبُّ الهـــوى *** فشُـــغْلِي بِـــذِكْرِكَ عـــن ســـواكا
وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــلٌ لـــه *** فكَشْـــفُكَ لـــي الحُجْـــبَ حتـــى أراكـــا
فـــلا الحمـــد فـــي ذا، ولا ذاك لـــي *** ولكـــن لـــك الحمـــد فـــي ذا وذاكـــا

وقالت:

قلـــوبُ العاشـــقين لهـــا عيـــونٌ *** تـــرى مـــا لا يـــراه الناظرونـــا
وألســـنةٌ بســـرٍّ قـــد تنـــاجي *** تغيـــبُ عـــن الكـــرام الكاتبينـــا
وأجنحـــةٌ تطيـــر بغيـــر ريـــشٍ *** إلـــى ملكـــوت ربِّ العالمينـــا
فتســـقيها شـــرابَ الصّـــدقِ صـــرفًا *** وتشـــرب مـــن كـــؤوسِ العارفينـــا

وقالت:

ولقـــد جعلتُـــكَ فـــي الفـــؤادِ مُحَـــدِّثي *** وأبَحْـــتُ جســـمي مَـــنْ أرادَ جلوســـي
فالجســـمُ منِّـــي للجلـــيس مـــؤانسٌ *** وحبيـــبُ قلبـــي فـــي الفـــؤادِ أنيســـي

فقالوا: إباحية حلولية متزندقة، وقالت أيضا:

كأســـي وخمـــري والنّـــديمُ ثلاثـــةٌ *** وأنـــا المشـــوقةُ فـــي المحبّـــةِ: رابعـــه
كـــأسُ المســـرّةِ والنّعـــيمِ يُـــديرُها *** ســـاقي المـــدامِ علـــى المـــدى مُتتابِعَـــه
فـــإذا نظـــرتُ، فـــلا أُرى إلاّ لـــه *** وإذا حضـــرتُ، فـــلا أُرى إلاّ معـــه
يـــا عـــاذلي إنّـــي أحـــبُّ جمالَـــه *** تـــا اللّه مـــا أُذْنـــي لِعَـــذْلِكَ ســـامعَه
كـــم بِـــتُّ مـــنْ خُرْقـــي وفـــرطِ تعلُّقـــي *** أُجـــري عيونًـــا مـــنْ عيـــوني الدّامعـــه
لا عَبْرتـــي تُرْقـــا، ولا وصْـــلي لـــهُ *** يبقـــى، ولا عينـــي القريحـــةُ هاجعـــه

---

[63] الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق عبد الأمير مهنا، ج 2، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 1، بيروت، لبنان، 1992، ص: 250.